من تراب الطريق ! (٦٨٩) يفرح اليوم من لا يموت !!! (*)

هذا شطر من بيت من قصيدة ، رثى بها نفسه ، من قرابة سبعمائة عام ، الوزير الشاعر الأديب الأندلسى لسان الدين بن الخطيب .. استحضره ما أراه اليوم من فرح الشامتين فى مقتل المصريين بأيدى الإرهابيين الذين عاثوا فى الأرض فسادًا وإهلاكًا ، وأعملوا فى عباد الله قتلاً وذبحًا وسحلاً وحرقًا، لا يبالون بالأرواح التى تزهق بغير حق ، ولا بحرمة الدماء ، ويسبقهم الفرح والشماتة فيمن يقتلون ، وكأنهم يعيشون أبدًا ، ولن يجد الموت سبيلاً إليهم !

نعم . يفرح اليوم من لا يموت !!!

فهل القتلة الشامتون ، لا يموتون ولن يموتوا ؟!!

إلى هذا المعنى أومأ الوزير الشاعر الأديب ابن الخطيب ، بالقصيدة التى رثى بها نفسه فى محبسه ، بعد أن تآمر عليه الأوغاد ، وكادوا له ، واتهموه ظلمًا وجورًا وكذبًا بالكفر والزندقة والخروج على الشريعة .

كان العصر فى منتصف القرن الثامن للهجرة ، المقابل لمنتصف القرن الرابع عشر الميلادى ، يموج فى المغرب والأندلس ، بالقلاقل والفتن ، وبالمؤامرات والانقلابات ، وسالت فى ذلك العصر كثير من الدماء على جدار السلطة .. فقتل الابن أباه ، والأب ابنه ، والأخ أخاه ، والصديق

(*) المال فى ٢٠١٤/٤/١٤

صديقه ، حتى عَزَّ على من مِثْل الوزير الشاعر الأديب ابن الخطيب ، ومن مِثْل العالم المؤرخ الأديب ابن خلدون ، أن يقى نفسه من شرور هذه الفتن رغم ما تبوأه كل منهما من مناصب ، وما له من مكانة يعترف بها العدو والصديق .. وقد قُيِّضَ لابن خلدون أن ينجو غير مرة مما حيك له ، بيد أن لسان الدين بن الخطيب لم تُقَيَّض له النجاة من المؤامرة الأخيرة التى حيكت ودبرت له .

كان الأديب الشاعر لسان الدين بن الخطيب ، أعظم كتاب الأندلس وشعرائها يومئذ ، وخدم سلاطين غرناطة بالأندلس منذ حداثته ، ثم وزيرًا ليوسف أبى الحجاج بن إسماعيل الأحمر ملك غرناطة ، ثم صار وزيرًا ـ بعد قلاقل وتقلبات لا يتسع لها المقام هنا ـ لنجله محمد بن يوسف الذى آل إليه ملك غرناطة ، فلما فقد محمد ابن يوسف عرشه ، شاطره ابن الخطيب محنته ونفيه إلى المغرب لدى السلطان أبى سالم الذى توسط لدى حكومة غرناطة لإجازتهما إلى المغرب ، ولما استعاد محمد بن يوسف عرشه بعد أحداث ، ردَّ ابن الخطيب إلى سابق مراتبه ، ولكن كثرت المؤامرات من حول الوزير حتى ضعف نفوذه ، وأخذ نجمه فى الأفول ، وتغير ابن الأحمر نحوه ، فنزح إلى المغرب الأقصى ، واستظل بلواء سلطانها ، ولكن سرعان ما سعى خصومه للنيل منه بعد أن ساءت العلاقة بين بلاط فاس وبلاط غرناطة ، واتهموه ظلمًا وكذبًا وجورًا بالزندقة والكفر ، وطلب سلطان الأندلس الغنى بالله محمد بن الأحمر ، إلى بلاط فاس بالمغرب ، إبعاد الوزير ابن الخطيب وتشريده ، فأبى بلاط المغرب ، ثم تقلبت الأحوال تبعًا لتغير السياسة ، وذهب الوزير أبو عبد الله بن زمرك من الأندلس إلى فاس ليسعى

فى تنفيذ « عهد شائن » قطعه سلطان المغرب الجديد على نفسه لابن الأحمر ضمن شروط تحالف بينهما ، بأن يجاريه فى العمل على نكبة ابن الخطيب ، وكان بلاط غرناطة قد مَهَّد لهذه النكبة بتدبير اتهام الوزير السابق بالكفر والزندقة والخروج على الشريعة ، وسلوك مذهب الفلاسفة الملحدين فى بعض رسائله .

أصغى سلطان المغرب إلى سعاية ابن زمرك ، وعقد مجلسًا على هواهم من رجال الدولة لمواجهة ابن الخطيب الذى أودع السجن بهذه التهم الباطلة ، وأخصها الزندقة والخروج على شريعة الإسلام . وذهب المفكر الشاعر الأديب والكاتب السياسى العظيم ضحية هذه المساومة الشائنة ، وضحية التعصب والجهل ، وأُدين كذبًا بتهمة الزندقة ، وعذب فى سجنه ، وأفتى بعض الفقهاء السفلة بقتله ، ودس عليه الوزير سليمان بن داود بعض الأوغاد فقتلوه خنقًا فى سجنه ، وأُحرقت جثته تجاه باب المحروق من أبواب فاس التاريخية فى جمادى الأولى أو الأخيرة سنة ٧٧٦ هـ - ١٣٧٤ م ، حيث دفن على مقربة منه !

واليوم صار قبر لسان الدين بن الخطيب مزارًا ، وفى المقابل مات منسيًّا من شمت وفرح يوم الغدر به وقتله ، ظانًّا - فى شماتته - أنه لا يموت !

لقد صحت بذلك نبوءة الوزير الشاعر الأديب فى القصيدة التى رثى بها نفسه فى سجنه ، والتى قال مما قاله فيها :

وكم سيق للقبر فى خرقة : فتًى مُلئت من كساه التخوت

فقل للعِدا ذهب ابن الخطيب وفات ومن ذا الذى لا يفوت

فمن كان يفرح منكـم لـه : فقل يفرح اليوم من لا يموت !

أجل ، يفرح اليوم من لا يموت !!!

فهل الفرحون الشامتون فى قتل المصريين ـ لا يموتون ؟!!

متى يعى الإرهابيون دروس التاريخ ؟!!!

* * *